التعايش

د. سلمان بن فهد العودة
المشرف العام على مؤسسة
الإسلام اليوم

التعايش الحضاري

مفردة العيش ومشتقاتها مادة مستخدمة في اللغة العربية، ومستبطنة فيها بوضوح، غير أن المفهوم المعاصر لكلمة (التعايش) بات ذا صخب وجدل شديد؛ جعل بعض المهتمين الإسلاميين يحسّون بأن هذا الكلمة حُقنت بمفاهيم ذات دلالات سلبية شائعة، تجعل الشريعة كلأً مباحاً، وهناك تخوفٌ من أن هذا المفهوم قد يكون خلفه تذويب لأسس الإسلام، وتقديم أنصاف العقائد وخليط من الإسلام، وهذه دعاية مسيئة بحق للوجه الإيجابي لهذا المفهوم، ودعاية مسيئة بحق الإسلام، إضافة إلى أن نسبته إلى الفكر الغربي الذي أشاعه بهذا الاسم أوجد شيئاً من التخوف المشروع بأن ترويجه الغربي تم بإرادة متنفذة؛ لتغييب القيم الإسلامية، وإدماج المشرق مع الغرب وذوبان هويته.

ومع تقديرنا لهذا التحفظ؛ غير أن انتشار المفهوم بهذا الاسم (التعايش) في أدبيات مختلفة لا ينفي إطلاقاً أساس المعنى المحفوظ والمعترف به والمقدم في النصوص الإسلامية.

إنه لا ينبغي التحفظ من هذا المصطلح أو غيره؛ لكونه محقوناً أو مشحوناً؛ إذ لا مشاحة في الاصطلاح- كما قيل- ، ويفترض أن يكون التعامل معه بهدوء وواقعية؛ برده إن كان خطأ، وفرزه إن كان قابلاً للفرز، وهذا ما يدعونا إليه الدين الإسلامي وقواعده، ذلك أن (الْكَلِمَةَ الْحِكْمَةَ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا)، رواه الترمذي، وقال: غريب.

إن المفهوم السلبي للتعايش بمعنى التنازل عن العقيدة أو تقديم نصف عقيدة أو بعض دين مرفوض تحت أي مسمى جاء به، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: من الآية٨٥)، بيد أن المفهوم الإيجابي له بالتوصل إلى مستويات أخلاقية في الحوار والاتفاق على أسس العيش والتصالح، وتقدير الاختلاف، والاعتراف به، والاعتراف بالتعددية؛ أمر جاءت به الشريعة الإسلامية.

ومن الجدير بالتنبيه عليه أن القرآن الكريم جاء بمصطلحات ربما تكون أوسع معنى، وأشمل تعاملاً من مصطلح التعايش، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: من الآية١٣)، فلفظ «التعارف» ليس مقصوراً على الاسم والقبيلة، إنما هو خطاب للبشرية بالمعنى الواسع في تبادل المعارف والعلوم والمحاسن والفضائل.

ويقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: من الآية٢)، فالتعاون على الخير والمصلحة مفهوم شرعي ناصع، متفق عليه، سواء مع الموافق أو المخالف؛ لأنه تعاون على معنى صحيح، وهو البر والتقوى، وليس الإثم والعدوان، وذلك المفهوم (التعاوني) و(التعارفي) في غاية التبشير للناس، وتقديم أفضل القيم التي ترفع بني الإنسان، وتقربهم من هداية الله بدينه العظيم (الإسلام).

ومن المقرر أن أوضاع البشرية وأحداثها وقانون الاختلاف هي بإذن الله القدري الكوني، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٨-١١٩)، وذلك الاعتراف

بالاختلاف والتعدد يحمل في داخله معرفة ضرورية بوجود الشر والخطأ و..الخ المجافية لقيم الفضيلة والأخلاق والتقوى.

وليس معنى التعايش قبول هذه الأوضاع السيئة وتبريرها بطريقة منطقية, ولا إبطال قانون المقاومة، والدفع بالتي هي أحسن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...، فهذه قيم شرعية ثابتة، لا مزايدة عليها.

إن معنى التعايش هو قبول التصالح الدنيوي، والوجود والجوار في الاتفاق على جملة من الأخلاق الإنسانية التي تتيح فرصة لتبادل الحوار والإقناع.

والمؤمن مُصلحٌ آمرٌ بالمعروف والخير، ناه عن المنكر والشر، حريص قدر المستطاع على دفع الباطل بالحق والجهل بالعلم.. عارف بمواقعه ,معتدل في رؤيته للإصلاح، فالرؤية المثالية التي يحمل بعضنا الناس عليها هي بمثابة حملهم على جبل وَعْر ,والناس فيهم الضعيف والكبير وذو الحاجة والمختلف والمتفق؛ ممن قد لا يتحملون ذلك.

ولَمَّا حَاصَرَ رَسُولُ اللَّه الطَّائفَ فَلَمْ يَنَلْ منْهُمْ شَيْئاً قَالَ: (إِنَّا قَافلُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ). فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ - يعني الصحابة- وَقَالُوا نَذْهَبُ وَلاَ نَفْتَحُهُ! فَقَالَ: ((اغْدُوا عَلَى الْقِتَالَ))، فَغَدَوْا فَأَصَابَهُمْ جِرَاحٌ.فَقَالَ: ((إِنَّا قَافلُونَ غَداً إِنْ شَاءَ اللَّهُ). فَأَعْجَبَهُمْ، فَضَحكَ النَّبي ﷺ.

ومن الافتئات على مقاصد الشريعة ودعوة الإسلام أن تصطفي مجموعة نفسها تحت أي مسمى، تحتكر الصواب، والرؤية الصائبة المطلقة، وتعتبر الخارج عن سلطتها مفتوناً حلال الدم أحياناً ,معلنة عن بيعة ملزمة عندها هي مفرق الحق من الباطل بين الناس، وهذا أنموذج هو في نفسه فتنة، ولا عهد لنا

به في الشريعة الإسلامية التي حقنت دماء من لا يؤمنون بها أصلاً، من يهود ونصارى وغيرهم، بموجب عقد واتفاق على مر عصور التاريخ.

إن النموذج العظيم للتعايش هو أنموذج المدينة المنورة، عاصمة الإسلام، وحامية بيضته وحوزته، ومنطلق دعوة آخر الأنبياء ﷺ، ففي مرحلتها الأخيرة وفترة التمكين شاء الله ألا تكون المدينة للصحابة والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فقط، بل شاء أن يشاركهم فيها اليهود والوثنيون والمنافقون وضعفاء الإيمان، جنباً إلى جنب، بل وشاء الله أن يموت رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي، كما في الصحيحين، في إشارة إلى أن هذا المعنى محكم ثابت، لا يمكن نسخه أو العبث فيه.

إن التعايش هو نوع من التعاون والتعارف في المشترك الحضاري والإنساني، وتبادل الخبرات التي تعين الإنسان على عمارة الأرض، ونشر قيم الخير التي يتفق الناس على الاعتراف بها، وذلك كله نوع من فتح المجال لنشر الإسلام ودعوته، وذلك كله لا يعني الدعوة لأفكار المختلف أو شرعيته دينيا، بل القبول بالتعايش الدنيوي لفتح الحوار دينيا ودنيويا.

والصحابة -رضي الله عنهم- أدركوا أنهم أصحاب ديانة تختلف جوهرياً عن الديانات الأخرى، فالفارق عميق وأصيل وراسخ في العقيدة والإيمان والكتب والعبادة.. لكن ثمت معنى مشتركا، ومصلحة دنيوية جامعة أحياناً ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤).

والرسل هم أعظم الخلق إيماناً ,ومع ذلك عايشوا قومهم رغم الكفر المطلق والإيمان المطلق، فنوح -عليه السلام- مكث ألف سنة إلا خمسين عاماً في قومه، يقول الله جل وعلا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (نوح: ٥-١٠)، فهو يدعوهم، ويجادلهم بالتي هي أحسن، وبالحوار الهاديء الموضوعي الذي عن طريقه يصل الحق إلى أصحاب العقول السليمة، وهذا جزء من التعايش.

إن التعايش لا يعني ترك رأيك الخاص الفردي، فضلاً عن عقيدتك ودينك،فالرأي الذاتي هو جزء من شخصية المرء، ولا يملك أحد أن يطالب الآخرين بتغييره أو مخالفته، إلا أنه يبقى في النهاية مجرد رأي شخصي، والمطلوب هو التخلي عن التعصب المحتقن، والانفعال الجاري في غير قناته، وإحلال الحوار والدعوة بالتي هي أحسن محله؛ فالتعايش ترك التعصب للرأي والإكراه فيه، لا ترك الرأي نفسه أو المساومة عليه، وبين هذا وذاك بون عظيم.

إن من الملاحظ أن التعايش غدا بعيداً عن واقع بعض القطاعات الإسلامية ليس مع الديانات الأخرى؛ بل مع أبناء الملة الواحدة، بين المذاهب الفقهية، والجماعات الإسلامية، والدول، بل بين القبائل العربية أحياناً، في حالة من العنف والعدوانية يطير معها شاهد اللب ويغيب، وهو يتساءل من أين جاءنا هذا المأزق؟!

إلامَ الخُلفُ بَينَكُمُ إلامـــا ... وَهَذي الضَجَّةُ الكُبرى عَلاما
وَفيمَ يَكيدُ بَعضُكُمُ لِبَعضٍ ... وتُبدُونَ العَداوَةَ و الخِصَامَا

الكثير يظنون، أن طرح موضوع التعايش لا يكون إلا في حالات الضعف والتمزق والتشرذم فقط، والشواهد تنادي على أن التعايش يكون أرسخ أسساً وأعمق جذوراً في زمن القوة والقدرة، فالقادر على صناعة التعايش والسلم هو القادر على صناعة حرب وقتال، ومن لا يصنع حرباً لا يصنع سلاماً، بينما يعاني مفهوم التعايش من الانهيار والانتهاك في أزمنة الضعف والشتات.

إن القوة في تحمل الناس بآرائهم وخلافاتهم ,والسيطرة على دوافع النفس وشهواتها ونزغاتها، وكبح جماحها، وليس في فرض الرأي بالقوة يقول النبي الكريم ﷺ -كما في الصحيحين-: ((لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)).

وعندما فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (القدس امتنع أن يصلي داخل الكنيسة- وهو القوي المنتصر- وقال، وهو المحدث الملهم: أخشى أن يتخذها المسلمون بعدي سنَّةً، فيصلون فيها، فيضايقون أهلها، ويقولون: هنا صلّى عمر، فصلى عمر رضي الله عنه خارجها، وأعطى المسيحيين الأمان على حياتهم، وحقن دماءهم.

وفي حين قتل الزعيم النصراني «ريتشارد» أكثر من ألفين وسبعمائة أسير مسلم في لحظة واحدة وصلبهم خارج أسوار مدينة عكا لتأخر ما اتفق عليه مع المسلمين، يقوم صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - بحقن دماء أهل القدس جميعاً مسيحيين ويهود -وهو القادر على النكاية- عاقداً صلحه الشهير باسم (صلح الرملة) في ٢٢ من شعبان ٥٨٨هـ ٢ من سبتمبر ١١٩٢م، في أعظم صور التعايش في زمنه.

إن التاريخ الإسلامي هو تاريخ القوة والانتصار،وهو نفسه تاريخ التعايش

وضبط العهد والميثاق، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة:١)، يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - في تفسيره عند هذه الآية: هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود: أي بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقصها.. وقال: وهذا شامل للعقود، التي بين العبد وربه من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الإنقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول ﷺ بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم ووصلهم، وعدم قطيعتهم، والتي بينه وبين أصحابه (المتقين) من القيام بحقوق الصحبة في الغني والفقر، واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق..

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء:٣٤)، وفي الصحيح: ((مَنْ قَتَلَ نَفْساً مُعَاهَداً لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَاماً))، بل في البخاري ومسلم أن النَّبِي ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ؛ فَقَامَ. فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جَنَازَةُ يَهُودِي!. فَقَالَ: ((أَلَيْسَتْ نَفْساً)).

وهذا ابن تيمية - رحمه الله - يخاطب سرجوان ملك قبرص في رسالته المشهورة بقول: بلغني ما عند الملك من الديانة والفضل ومحبة العلم وطلب المذاكرة ورأيت الشيخ أبا العباس المقدسي شاكراً من الملك: من رفقه ولطفه وإقباله عليه، وشاكرا من القسيسين ونحوهم. ونحن قوم نحب الخير لكل أحد، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة.

ولم يرض ابن تيمية بفكاك أسرى المسلمين وحدهم، بل طالب التتار بفكاك أسرى اليهود والنصارى قائلاً: بل جميع من معك من اليهود

والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، فإنا نَفْتَكُّهُم ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة.. وكذلك السبي الذي بأيدينا من النصارى يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا بهم؛ كما أوصانا خاتم المرسلين.

إن الهزيمة النفسية أحياناً تجعل بعض الناس يشعرون أن هذا اللون من الحديث يفضي إلى تبرير الانهزام والرضا به، والبعض الآخر يطرحون صورة مثالية لا واقع لها عن التعايش، وتحرير مدلول التعايش وفهمه كاف في رفع الالتباس.

إن نجاح التعايش مرهون بصوت العقلاء الذين يقدمون لغة الحوار الهادىء، الهادف الذي يحقق المنشود، ويصل لهدفه بيسر وسهولة، كما أن إخفاقه مرهون بصوت الحمقى الذين لا يعرفون إلا مصالحهم فقط، حين يعتمدون لغة القوة والعنف بشكل كبير في إداراتهم ومطابخ قراراتهم، ومن هنا شن صناع الحروب وعرابوها حرباً، ليس على العالم العربي والإسلامي فقط، بل على كل من ليس معهم أو مع إدارتهم؛ مما قطع كل طريق أمام الاعتدال والفهم الإنساني المشترك والمصالح الاقتصادية والأخلاقية الإنسانية، والتي هي محل اتفاق عند العقلاء جميعاً ،لكن القادة العسكريين لا يفكرون إلا بطريقة عسكرية، مما جعل الحوار يصل إلى طريق مغلق مسدود.

إن الدين لم ينزل - كما يظنه البعض- لتأجيج الصراع بين الناس، بل لضبط العلاقة وتنظيمها وعمارة الأرض، يقول الله جل وعلا: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: من الآية٦١)، ولهذا لما خلق الله آدم؛ خَلقه من أَجل عمارة الأَرض، والسعي فيها، والضرب فيها؛ قالت الملائكة لربها تبارك وتعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ

نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: من الآية ٣٠)؛ فعلموا أن الفساد في الأرض، وسفك الدماء مما يكرهه الله عز وجل، فندرك من هذا أن الله لم يخلق البشر ولم ينزل الكتب لأجل أن يتحاربوا ويتنازعوا.

إن مما يلزم مراعاته فقه تحقيق المصلحة ودرأ المفسدة، ذلك أن مصلحة التعايش ظاهرة وميسرة، ونفعها جلي.

وفي السيرة والفقه أبواب كثيرة، كلها ينبغي استعمالها، وتوظيفها حال احتياجها.

فهناك: أبواب للهدنة، وأبواب للصلح، وأبواب للموادعة، وأبواب للعهد، وأبواب لغير ذلك مما ينبغي على الإنسان أن يتأمل ما يكون مناسباً منه للحال والمقام.

إن الناس جميعاً يحتاجون في كثير من الأحيان إلى أن يتعايشوا فيما بينهم بهدوء وموادعة ومتاركة، بعيداً عن إدارة الحرب والصراع، والانشغال عن الأولويات بما هو دونها.

إن استمالة القلوب، واستقطاب العقول للتعرف على هذا الدين والدخول فيه لا يمكن من دون استعمال الصبر، والرفق واللين والمداراة، واحتمال الأذى، ومقابلة الإساءة بالإحسان، كما أمر الله -تبارك وتعالى- في ذلك في غير ما موضع من كتابه، يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)، وبهذا استمال النبي ?قلوب أعدائه، وعالج قسوتها وشماسها ونفارها، حتى لانت، واستقادت، وقبلت الحق.

إن الكلمة الطيبة الحانية، والابتسامة الصادقة الصافية، والإحسان إلى الآخرين بالقول والفعل؛ من أسباب زوال العداوة وتقارب القلوب، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت:٣٥).

إن التعايش هو حقن الدماء البريئة، وفتح مجال للحوار والجدال بالتي هي أحسن، وهو تقديم مشروع يحمي الكلمة الإسلامية، ويزودها بالعقل والحجة والمنطق التي يمتلئ بها كتاب الله وشرعه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران:من الآية٦٤).

التعايش مع النفس

عش، ودع الآخرين ليعيشوا، وامنحهم الحق في ذلك كما منحت نفسك، ولا تعتبر وجودك يقوم على أنقاضهم، ونجاحك على تدميرهم؛ فالطرق شتى، والفرص التي خلقها الله تعالى بعدد الخلق، بل بعدد أنفاسهم، حتى طرق الجنة لا حصر لها، وفي الصحيح: ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ))، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١١).

ولما عاتب أحد الوعاظ مالك بن أنس في قعوده ومجلسه.. قال: كلانا على خير.

هذا هو معنى التعايش المأخوذ من العيش المشترك بين طرفين، سواء أكانوا أشخاصاً أم أسراً أم مجتمعات، ومنه تعايش الإنسان مع نفسه، بأن يكون صادقاً معها ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١٩)، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ (آل عمران: ١١٠)، و((الصِّدْق يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ)).

وإذا كان الصدق عند كثير من الناس ومضات وإشراقات ما تلبث أن

تختفي؛ فإن الصدق عند رئيس الصّدّيقين أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان ديمومة مستمرة لعمل الصدق مع النفس، بالوضوح في المَلاحظة والمعالجة والمحاسبة.

كل منا داخل نفسه وقلبه مصباح أو شعلة ,والمفترض أن يسلط هذا المصباح على داخلة نفسه ,ويجيله في أطواء ضميره ,ومخبّآت قلبه؛ بيد أن الكثيرين يسلطون المصباح على غيرهم، نقداً وعيباً وبحثاً عن الزلات والأخطاء، ومحاصرة لهم، وأخذاً بمخانقهم :

إذا رمت أن تحيا سليما من الأذى ... وحظك موفور وعرضك صيّنُ
لسانك لاتذكر به عورة امريء ... فكلك عورات وللناس ألسنُ
وعينك إن أدّت إليك معايباً ... فصنها وقل يا عين للناس أعينُ
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... وجادل ولكن بالتي هي أحسنُ

في تتبع الآخرين بإمكانك أن تلاحظ كثيراً ممن يعرف الناس ولا يعرف نفسه، ولهذا من استقرأ ما كتب الشعراء والأدباء وجدهم يتشوفون إلى إنسان صادق، يطمئنون إلى صدقه، ويركنون إلى أمانته.

والناس يتوقون إلى صاحب المصداقية في نفسه وأقواله وأفعاله ومواقفه وقناعاته، كما يقول الحسن: خير الناس من وافق قوله فعله، وصدّق سريرته علانيته، ليكون منسجماً مع ذاته في معرفة مواهبه وطاقاته وقدراته، ومعرفة عقله ونفسه؛ فإن معرفة الإنسان لنفسه هي المنطلق لقدرته على التعايش مع النفس؛ مالها وما عليها:

دَواؤُكَ فيكَ وَما تُبصِرُ ... وَدَاؤُكَ مِنكَ وَما تَشعُرُ

وتَزعُمُ أَنَّكَ جُرمٌ صَغيرٌ وَفيكَ انطَوى العالَمُ الأَكبَرُ

فالنفس عالم هائل ضخم، تكتنفها الطلاسم وتحوطها الألغاز والأسرار، والكثير لا يتقنون قراءة أنفسهم بشكل جيد، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذريات:٢١)، فقد يظن الإنسان نفسه أوسع الناس صدراً، وأطولهم حبلاً، وأبعدهم أناة وحكماً ومداراة؛ وأفعاله تنم عن غير هذا.

إن ثمة دعوة ملحة تفرض نفسها بديلاً عن بث التهم في كل اتجاه، مؤدى هذه الدعوة: أن افهموا أنفسكم وأقبلوا عليها، فأنتَ بالنَّفس لا بالجسم إنسانُ.

قبل أن نلقي بالتبعات واللوم على غيرنا ينبغي أن نلوم أنفسنا أولاً، وليس معناه أن نكون قساة مع أنفسنا ظالمين لها، مُفْرطين أو مفرّطين، بل على العدل قامت السماوات والأرض، إن النظر في أدواء النفس هو أول سبيل البصيرة، وإلا فالعمى والتيه!

إن النفس الإنسانية أمانة عند صاحبها ائتمنه الله عليها، وأوجب حسابه على حفظها ورعايتها، ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا. وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ (النساء: ٢٩-٣٠)، فالانتحار (القضاء على وجود هذه النفس الإنسانية) عقوبته النار، ((بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِه، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ))، و ((مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَدَاً)).

كما أنه من أشكال قتل الإنسان لنفسه أن يئدها معنوياً، بمنعها من الخير، وتدسيتها بحملها على المعاصي؛ فالنفس قد تنتفض على صاحبها، وتطالبه

بتزكيتها، كما تطالبه بشهواتها، فيقمعها كما يقمع الحاكم الظالم المستبد مَن تحت يده، وكما قيل: قد تكون أميراً لكن على نفسك.

إن معرفة النفس أصل في التعايش، ولهذا ورد عن بعض السلف: من عرف نفسه استراح.

إن جزءاً كبيراً من أدبياتنا وتعاملنا مولع بإلقاء التبعات على الآخرين: والداً ووالدة وأسرة ومجتمعاً وحاكماً، بل وعلى العالم كله، فهم سبب إخفاق مشاريعنا وخططنا، ووأد نبوغنا وتميزنا؛ لتخرج النفس من المحاسبة والمحاكمة، وتتسلل لواذاً نائية بنفسها عن النقد والمراجعة والتصويب، بينما أحد التقارير يقول: إن ما يأتيك من الناس يؤثر فيك بنسبة ٢٠٪، بينما ما يأتيك من داخل نفسك وردة فعلك تجاه الآخرين يمثل ٨٠٪.

إن مما ينعكس سلباً على نفسية الإنسان وتعايشه تلك الأجندة الواسعة، والقائمة الطويلة، والتي محتواها: أن الآخرين يحيكون لنا مؤامرة كبيرة، ويتقصدوننا بالإساءة، فننظر إليهم على أنهم أعداء متربصون؛ حتى يؤدي ذلك إلى إسقاط الآخرين، وإسقاط الإنسان ذاته أيضاً، نتيجة عدم القدرة على قراءة النفس بطريقة صحيحة.

إن من القراءة الصحيحة اعتماد سلوك الإنصاف ,يقول عَمَّارٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ، وذكر: الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ..، يقول ابن حزم: من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه، فإنه يلوح له وجه تعسفه.

والكثير من الناس عند التعامل يضع يده على طرف الكفة لترجح له بانتقائية عجيبة؛ فهو مع نفسه لون، ومع الناس لون آخر، وهذا تطفيف

معنوي نهى الله عنه، ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ (النور: ٤٩).

التعايش .. مصالحة مع الذات، ومن فقد ذلك اهتز لكل طارىء سواء أكان سياسياً أم اقتصادياً أم اجتماعياً .. فهو لا يأوي إلى ركن شديد من معرفة نفسه، ومعرفة ربه -قبل ذلك- بأسمائه وصفاته العلا، ولو تم له ذلك لأفلح وأنجح، ((تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ))، والشدة هي الأزمة، ولا يتعلق الأمر بالأزمات فقط، بل بالأحوال المستقرة أيضاً.

لقد وضع الله سبحانه وتعالى الأرض للناس، ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (الرحمن:١٠) نعم : الأنام =(الناس) كلهم، وليس للمسلمين فقط، وهذه الأرض تشهد تغيرات هائلة، وتحولات حادة على كافة الصُعد، والله عز وجل عالم بها وبما سيحدث فيها، وعلم الرسل والأنبياء بأن طريقهم في التعامل مع عوالم هذا الأرض ليست الرفض المطلق، حتى لو كان الأمر خطأً محتملاً، فعملهم مقرون بالقدرة، والإجماع منعقد على أن الواجبات الشرعية مرهونة بها، وكان النبي ﷺ يقول لمن يبايعه على السمع والطاعة : ((فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ))، ومن الخطأ أن يتجاهل الإنسان الواقع منطلقاً من رؤية خاصة به يمنحها أدلة شرعية؛ فالإسلام يتعامل مع الواقع وبطريقة واقعية أيضاً، ولم يفترض عالماً مثالياً خالياً من الاضطرابات والمظالم والأخطاء لكي يتعامل معه.

إن العجب ليأخذ المتأمل كل مأخذ من هذا النبي - عليه الصلاة والسلام- الذي أقام ملّة، وأنشأ دولة، وأحيا الله به قلوباً غلفاً، وآذاناً صماً، وأعيناً عميا- عندما يترك بناء الكعبة على وضعها الذي يراه مجانباً للصواب؛ خشية حصول مفسدة أعظم، وأن القوم حديثو عهد بجاهلية.

وفي صلح الحديبية مسح البسملة ، وأبدلها بـ «بسمك اللهم» ، ومسح لفظ «رسول الله» وأبدله بمحمد بن عبد الله.

إن النبي ﷺ يعلم أنه رسول الله، وأن بسم الله الرحمن الرحيم شريعة، ولا مزايدة على ذلك؛ لكن قضية التعايش مع الآخرين ومع الواقع بآلياته لا يعني الاعتراف بالخطأ أو تبريره أو فقدان الهوية والضياع، إنما تعني أننا نعيش واقعاً ويجب أن نفكر مليّا ، وأن ندرس عملياً وشرعياً كيف نتعامل مع هذا الواقع بطرق سليمة، تحقق المصلحة وتدفع المفسدة، وهذا ما تختلف فيه مدارك الناس ومشاربهم وتصوراتهم.